فلسفة التأويل ما بعد ديلتاي الوجود والمنهج

د.تيرس هشام

أستاذ محاضر (قسم أ)

جامعة سيدي بلعباس/الجزائر

لقد خلّف **فيلهلم ديلتاي** آثارا بارزة على التّفكير الهيرمنيوطيقي طبعت "فكر كلّ من **مارتن هيدجر** و**جادامر** اللّذين تأثّرا به إلى حدّ كبير، وإن اختلفا معه في نقطة البداية وكثير من النّتائج، فيما يرتبط بمفهوم الهرمنيوطيقا وأبعادها" [1] إذ يمكن الذهاب إلى القول بأنّ جملة المسائل الّتي أثارها **ديلتاي** حول الفهم وماهية العلوم الإنسانيّة شكّلت حلقة هامّة أفضت بالتّفكير الهيرمنيوطيقي إلى مرحلة أكثر تأسيسا وأكثر شمولا هي مرحلة المساءلة الفلسفية عبر استثمار الأجهزة المفهومية للهيرمنيوطقا وإدخالها في حركة تبادل مع جملة من المقاربات الفلسفية المتاحة، وقد جسّد هذه المرحلة الفليسوف الألمانيّ **مارتن هيدجر** (1889-1976) أحد الأسماء البارزة في الفلسفة الوجوديّة، إذ بعد **ديلتاي** "فإنّ **هيدغر**، على نحو خاصّ، هو الّذي أعاد إدخال الموضوعات المحوريّة للتّأويلية إلى فلسفة القرن العشرين" [2].

لقد تناول فيلسوف **فرايبورغ** قضايا الفهم من حيث هي متضمنّة في مسائل الوجود، فاللّغة مثلا بما هي مادّة تبدّ للنصوص الّتي غالبا ما تكون مدار محاولات الفهم شغلت مجالا

هامّا في محاضراته، فهي فضلا عن كونها نظام تجاوز، أي تجاوز الأنا إلى الغير، وتجاوز التّجربة الفرديّة إلى التّجربة الغيريّة أو الآخريّة، فإنّ ماهيتها عند هيدجر "تكمن في كونها كشفا أو إظهارا للوجود؛ واللّغة تكشف الوجود عندما تظهر الوجود الإنسانيّ والموجودات الفرديّة من خلال تحجّبها" [3].

إنّ اللغة ليست معطى نكشف عنه أو نستعمله، بل هي كيان يتكشّف عن نفسه ولحظة تكشّفه الذّاتيّ هي وجوده الأصيل، فعندما تسمّي اللّغة الموجود لأوّل مرّة فإنّ تسمية من هذا النّوع تحمل الموجود إلى القول والظّهور" [4]، و**هيدجر** في هذا لا يخرج عن إطاره الفلسفيّ العامّ، إذ رفض في "نظريّة الوجود في الفلسفة الغربيّة اعتبارها الإنسان هو محور الوجود، وهو العنصر الفاعل في المعرفة وإعطائها للوجود دورا ثانويّا يخضع فيه للذّاتيّة ويستجيب لمقولاتها" [5].

وخلف كلمة "**الكشف**" تكمن مسألة هامّة في تفكير **هيدجر**، هي ربط الحقيقة بالكشف أي بمعناها في اليونانيّة القديمة وهو "كشف (**عدم الخفاء** unverborgenheit) الموجود" [6]، فالحقيقة تكشفٌ منجز في اللّحظة المحايثة وانحسار عن جانب مضيء فيها، فهي لحظة وجود لا تتكرّر، لا تقاس على القبليّ، ولا يقاس عليها البعديّ؛ إنّ هذه المواصفات تتراءى بامتياز في النّص الأدبيّ بالرّغم من ارتكازه على معطى سابق هو اللّغة.

لقد تناول **هيدجر** قضايا الأدب بما هو فنّ لغويّ حتّى "ارتبطت الهرمنيوطيقا في الأدب باسم **هيدجر** الّذي أسّس ما يعرف بالهرمنيوطيقا الفينومينولوجيّة لارتباطها بماهية ظواهر الوجود الإنسانيّ في صلته بظواهر الوجود نفسه، وسيلته في ذلك اللّغة ذاتها" [7] التي فضلا عن كونها وسيطا لنقل التّجربة وتحيين الأحداث ضمن أطرها الخاصّة، فإنّها كشف عمّا خفي من الوجود في الموجود، والأحرى تبعا لذلك، أن يكون الشّعر حكاية كشف الموجود" [8].

ولعل **إيكو** أشار إلى ذلك حين أقرّ "أنّ الهيرمنوتيكا الحديثة جدّا (**مع هيدغر**) تومئ إلى أنّ خلف كلّ صوت يكلّمنا تكمن ثقافة سابقة في الوجود تؤسّس قوانين التّأويل وتعلّمنا أن ننصت إلى خزّان للتّقليد الثّقافيّ بوصفه صوتا" [9]. ويزداد الأمر أهميّة حين ينتمي النّصّ إلى سياق ثقافيّ مختلف يجعل منه خير كاشف لنواة الوجود عبر تضاعيف الكتابة.

لقد فحص **هيدجر** أيضا مسألة المنهج الّذي تختّص به العلوم الإنسانيّة على غرار سابقه **ديلتاي** لكن من زاوية نظر وجوديّة، فقد حطّم "من خلال إعادته التّفكير في مسألة الوجود، الإدّعاء الّذي يقصر معرفة الحقيقة على العلم، ويعيد تركيز مشروع علم التّفسير على طبيعة الفهم التّاريخيّة دائما" [10]، ومسألة المنهج على عمومها، ستكون نقطة الجذب

في مشروع فلسفيّ لاحق على **هيدجر** هو مشروع **هانز جورج غادامير**.

يتكشّف مشروع الفيلسوف الألمانيّ **غادامير** (1900–2002) عن مرحلة إبستمولوجيّة تحددّت فيها معالم الحقل الهرمنيوطيقيّ بشكل لافت، وربّما اتّضحت بعض أطره العامّة ما دفعه إلى أن يستهلّ "كتابه «**الحقيقة والمنهج** truth and method» بطرح تاريخيّ نقديّ للهرمنيوطيقا منذ شلايرماخر وحتّى عصره مرورا **بديلتاي**" [11].

غير أنّ الحضور الأكبر في مشروع **غادامير** كان **لهيدجر**، فهما يمثلاّن (**هيدجر وغادامير**) – حسب **بول ريكور**– المرحلة الأنطولوجيّة للهرمنيوطيقا بعد المرحلة الإبستومولوجيّة الّتي مثّلها كلّ من **شلايرماخر** و**ديلتاي** [12]، فضلا عن آثار المعاصرة التي جمعتهما، "إذ هناك خاصيّتان أساسيّتان تميّزان هرمنيوطيقا **هيدجر** في تعاملها مع النّص، قد تردّد صداهما في هرمنيوطيقا **جادامر**، والخاصيّة الأولى هي أنّ النّص يكشف عن الوجود وينطوي على حقيقة أو معنى يتجاوز إطار بنية الشكليّة، والثّانيّة أنّ تفسير النّصّ – وبالتّالي فهمه – يقتضي تجاوز إطار الذّاتية والموضوعيّة معا" [13].

فعلى مستوى الميزة الأولى، تكون الحقيقة التي يثيرها أو يكشف عنها النصّ الأدبي، ومثله أيّ نظام دالّ، انبثاقا في

اللّحظة الّتي يقبض فيها الإدراك على مدرَكه، فالحقيقة ذات طابع تراكميّ لا بالمعنى الإضافيّ التجاوزيّ، بل بمعنى الإنجاز والتّحيين ضمن مختلف التّجارب الإنسانيّة وشروط الوعي ومتطلّبات الفكر ورهانات الأسئلة التي تنـزع كلّها عن الحقيقة ثوبها المفارق الثّابت وتمنحها كشف خصوصيّة المحايث الملوّن بمعطيات الوعي الآنيّ، فليست الحقيقة إذن معطى أركيولوجيا يوضع في فعل تصادمي مع المنجز الحاليّ، وإنما هي اختبار لخصوصيّة التّجربة عبر ارتيادهما المشترك لآفاق الآتيّ؛ فأيّ ثبات في الحقيقة أو أيّة مسحة من التّعالي ستكون مساوية لعجز داخليّ عن تقديم الأجوبة الّتي تصوغ أسئلتها الإكراهات المستجدّة.

إنّ تصورا كهذا للحقيقة، إنّما خلص إليه **غادامير** من تأمّله في مسألة أخرى هي مسألة المنهج، وهو عنده "شيء يطبّقه شخص ما على موضوع ما من أجل الحصول على نتيجة بعينها" [14]، فمحاولة الفصل بين المنهج وبين الحقيقة الّتي يكشف عنها محاولة محكومة بالفشل، وإذا خصّصنا الحقيقة بالّتي يكشف عنها المنهج، فلأنّ نسبيّتها الّتي ذكرنا تـمتد لتشمل المنهج الّذي يفضي إليها؛ المنهج ليس معطى فارغا بمعزل عن حقيقته الّتي هو جزء من عمليّة الكشف عنها فهو أشبه بلعبة الدومينو أو القطع الصّغيرة المصطفّة بمسافات مدروسة، بحيث

يؤدّي إسقاط القطعة الأولى إلى عمليّات سقوط مستمرّة إلى غاية الوصول إلى هذا الهدف.

إنّ **غادامير** وهو يعالج آثار المنهج في الحقيقة، وآثار هذه الأخيرة في المنهج، عضّد الشرعيّة الإبستمولوجيّة الّتي تسمو إليها العلوم الإنسانيّة في مواجهة مباهاة العلوم الطبيعيّة والتّجريبيّة بمناهجها وطرائقها السّكونيّة الثّابتة، وذلك عن طريق تمييز المنهج في العلوم الطبيعيّة عنه في العلوم الإنسانيّة، ودحض محاولات المطابقة بينهما بدعوى تحقيق العلمويّة لعلوم الفكر، إذ انتقد "**غادامير** الطّرح الوضعانيّ الّذي يتشبّث ببناء علميّ صارم تنتهجه العلوم الإنسانيّة في سبيلها نحو الحصانة العلميّة والموضوعيّة" [15]، فمصداقيّة علوم الإنسان لا يمكن أن تُكتَسب من مدى مطابقة مناهجها لآليّات العمل في العلوم التّجريبيّة، لأنّ الأولى "من وجهة نظر **غادامير** ممارسة نقديّة وشعور جوّانيّ، بمعزل عن القواعد الصّارمة والمناهج العقيمة" [16].

إنّ انصهار المنهج في الحقيقة الّتي يكشف عنها، يقودنا إلى الميزة الثّانيّة الّتي ترك بصماتها **هيدجر** في فكر **غادامير**، وهي تجاوز الفصل الموروث بين الذّاتيّة والموضوعيّة وأشدّ انتكاسة عرفها هذا الفصل، كانت على يد الفلسفة الظّاهراتيّة ومؤسّسها **هوسرل**، حين تناولت مسألة الوعي وعدم فصله عن الشّيء

الذي يعيه؛ وهذا التّجاوز لثنائيّة الذّات والموضوع سيلقي بضلاله على الدّرس الهيرمنيوطيقيّ ككلّ، الدّرس الّذي لا تستهويه كثيرا بعض مخلّفات الفلسفات المثاليّة والذّاتيّة.

وبالجملة، يتميّز طّرح **غادامير** بتوسعة مجال الفهم الّذي هو حجر الزّاويّة في الهيرمنيوطيقا، إذ خلافا لسابقيه، يطالب **غادامير** "الهرمنيوطيقا بوضع كليّ جامع، فهو مهتمّ بشرح عمليّة الفهم verstehen في ذاتها لا في علاقتها بعلم بعينه" [17] وعلى هذا لا ينحصر مجال الهيرمنيوطيقا في حقل معرفيّ معين أو في مادّة اشتغال بعينها، بل هي "صنف يتّسع ليشمل فهم وتفسير كـلّ ما هو قابل للفهم والتعقّل" [18] حتّى الذّات في وعيها لذاتها ولعلاقاتها الّتي تنسجها والّتي تقوم من حولها، وكذا في وعيها لتجاربها وماضيها.

الإحالات:

[1]– نصر حامد أبو زيد، إشكاليّات القراءة وآليّات التّأويل، المركز الثقافي العربي، بيروت/ الدار البيضاء، ط4، 1996، ص 30.

[2]– رينر روكلتز، تحوّلات التّأويلية، تر: مركز الأنماء القومي، في : العرب والفكر العالميّ، ع9 ، شتاء 1990، ص 57.

[3]– سعيد توفيق، هرمنيوطيقا النّص الأدبيّ بين هيدجر وجادامر، مجلّة نزوى، عمان، ع2، يناير 1995، ص 87.

[4]– مارتن هايدغر، أصل العمل الفنيّ، تر: أبو العيد دودو، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2001، ص 97.

[5]– نصر حامد أبو زيد، إشكاليّات القراءة وآليّات التّأويل، م م س، ص 31.

[6]– مارتن هايدغر، أصل العمل الفنيّ، م م س، ص 70.

[7]– إبراهيم القادري بوتشيش، النّص التّاريخي بين الدّلالة التقريرية والهرمنيوطيقا في: علامات (مجلة ثقافيّة)، المغرب، ع 16، 2001، ص 31.

[8]– مارتن هايدغر، أصل العمل الفنيّ، م م س، ص 98.

[9]– أومبرتو إيكو، قضايا الدليل الفلسفيّة، تر: حسن الطّالب، في: علامات، المغرب، ع 16، 2001، ص 116.

[10]– روبرت هولب، نظرية التّلقي (مقدّمة نقديّة)، تر: عزّ الدّين إسماعيل، كتاب النّادي الأدبيّ الثّقافيّ بجدّة، رقم 97، ط1، 1994، ص 121.

[11]–نصر حامد أبو زيد، إشكاليات القراءة وآليات التأويل، م م س، ص 37.

[12]– ينظر: بول ريكور، من النص إلى الفعل (أبحاث التأويل)، تر: محمد برادة وحسان بورقية، عين للدّراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، مصر، ط1، 2001، ص ص 67–68.

[13]– سعيد توفيق، هرمنيوطيقا النّص الأدبيّ بين هيدجر وجادامر، م م س، ص 85.

[14]–روبرت هولب، نظرية التلقي، م م س، ص ص 112،113.

[15]– محمّد شوقي الزّين، تأويلات وتفكيكات، م م س، ص 58 .

[16]– محمّد شوقي الزّين، تأويلات وتفكيكات، م م س، ص 58 .

[17]– روبرت هولب، نظريّة التّلقيّ، م م س، ص 113.

[18]– إبراهيم القادري بوتشيش، النّص التّاريخيّ بين الدّلالة التقريريّة والهرمنيوطيقا، م م س ، ص 31.